مفهوم التلقي والاتصال(أدب الرحلات)

أرادت فرنسا التعرف على بلدان العالم عن طريق الرحلات التي قام بها العديد من الرحالة واستفادوا كثيرا منها، فقد جاء الطبيب الرحالة فرانسوا برينيه (1920-1688) إلى مصر والشام عام 1654، كما أقام في الهند حتى سنة 1668 وأصبح طبيب السلطان المغولي أورنجيديت (1658-1808) ثم عاد إلى وطنه فرنسا يحمل معه ترجمة فارسية لكتابه "Upmochads".

وقد كان فرنسوا رينيه يتردد على صالون مدام دي لاسبير (1636-1693) وصديقه لافونتين الذي أعجب بمجموعة من الحكايات الخرافية ترجمت من الفارسية إلى الفرنسية عام 1644 تحمل عنوان "كتاب الأنوار" أو "أخلاق الملوك".

وفي سنة 1697 نشر أنطوان جالان "المكتبة الشرقية" وهي سجل حافل بتراث الإسلام، وقائمة غنية بالمصادر العربية، كما قام جالان بترجمة "ألف ليلة وليلة" إلى اللغة الفرنسية.[1]

وقد تعددت أسباب هجرة الرحالة فمنهم من يبحث عن لقمة العيش ومنهم من يدفعه حسه الفني المرهف إلى البحث عن القديم وتذوقه ومنهم من يبحث عن الحرية في بلاد أخرى، فقد هاجرت مادام ديستايل إلى ألمانيا ضائقة ذرعا بما تعانيه فرنسا من طغيان نابوليون، ومن تحكمه من حرية الأفكار فيها، وقد جاءت أفكارها مشوبة بنوع من المثالية التي تحلم بها، وقد كانت الصورة التي رسمتها مادام ديستايل صورة غير صادقة ومبالغا فيها لأنها لم ترهن ألمانيا غير رجال الأدب من المجتمعات الأرستقراطية ورجال السياسة وبعض الفلاسفة في برلين.

3. الرحلات في الأدب الإيطالي:

يعد كتاب "عجائب الدنيا" أو "المليون" لصاحبه ماركوبولو والرحالة الشهير من أقدم ما كتب في أدب الرحلات في إيطاليا (1254-1324) وهو عبارة عن مذكرات تاجر برع ماركوبولو في تسجيلها بدقة ورصد كل ما رأى وكل ما شد انتباهه، وقد أثار هذا الكتاب اهتمام جمهور القراء الغربيين على اختلاف مستوياتهم وبلادهم ومعتقداتهم.

ويقوم الكاتب في كتابه بسرد ذكرياته وهو في سجنه بعد خمسة عشرة عاما من عودته من رحلته الطويلة التي قادته إلى الشرق والتي دامت أربعة وعشرين سنة وهي فترة شبابه، وقد امتاز رحالنا بحب الاستطلاع والولع الشديد بالبحث عن كل ما هو عجيب وغريب كما أنه ينتقل بسهولة ويسر في حديثه عن الموارد والمواد التي تشغل اهتمام التجار، ثم يتحدث عن الناس وعن معتقداتهم وفضلهم ورذائلهم وعاداتهم.

ومما لاشك فيه أن كتابه (المليون) يعتبر من أهم ما كتب في أدب الرحلات في إيطاليا وذلك من الناحية التاريخية فهو من أول المؤلفات التي كتبت بإحدى اللغات العامية التي كانت تسود إيطاليا في ذلك الحين وإذا ما انتقلنا إلى القرن 18 نجد أن أديب الرحلات يتخذ الطابع الفكري العام لعصره ويمثل في حد ذاته لونا هاما من ألوان النثر في تلك الآونة، فقد تعددت ميول الكتاب ورحال الفكر واهتماماتهم باحتكاكهم ببلاد وعادات وتقاليد ومجالات وشخصيات معاصرة لهم سواء في إيطاليا أو في البلاد الأوربية.

II. المدينة العربية في عيون الرحالين الأجانب:

بدا اهتمام الغربيين ببلاد الشرق ومبعث ذلك أسباب كثيرة فمنهم من قصد هذه الديار مستطلعا حال بلدانها وأثارها، دارسا لغاتها وتاريخها وصنفوا في ذلك الكتب وكتبوا المقالات ووضعوا الخرائط، ومنهم من وجه اهتمامه إلى مصنفات الأقدمين.

ومع بدايات القرن 19 تعدى الانجذاب إلى شرق مرحلة الدهشة والانبهار لدى الرحالين الأجانب إلى محاولة اكتشاف جديد ومشوق للشرق ورغبة في معرفة أدق عن الآخر ما بين روائع آيات الماضي ومعاقد التاريخ من ضفاف النيل وطور سينا إلى المغرب العربي باختلاف مناطقه وما يحف بهذه الأصقاع من آثار مقدسة، وما نهض في أحضان هذا التاريخ من إبداعات فكرية وحضارية تكونت حصيلة ضخمة من معارف أوربا عن الشرق، وقد مكن الاستشراق الاستعمار الأوربي من التوسع، فكانت عيون المستشرقين تتجه نحو بلاد الشرق ولم يكن ما كتبوه مجرد تسجيل لانطباعاتهم بل تلقوا تدريبا أكاديميا مكثف تشرف عليه جامعة، وتمتعوا بالدعم المالي من حكوماتهم والجمعيات والمؤسسات العلمية.

وقد اتسمت أوصافهم بالدقة، حيث نجد كثيرا من التفاصيل في عرض دقيق للمدن العربية فحصا للتقاليد وأنماط السلوك ودراسة للأوضاع الاجتماعية والثقافية التي لا تخلوا من نوازع سياسية واستكشاف لما يحقق مصالح دولهم، وقد نقل هؤلاء الرحالة أثناء تواجدهم بالمشرق العربي ما انطبع في حياتهم، نتيجة لما رأوه في أسفارهم من مناظر طبيعية[1] ومعالم حضارية وعادات قومية.

1. صورة المشرق عمد الرحالة الانجليز:

حظيت مصر باهتمام الرحالة الانجليز في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر وقد أدى هذا إلى ازدهار أدب الرحلات الخاصة بها فمرده إلى ظهور ترجمات جديدة لكتاب "ألف ليلة وليلة" ثم نتيجة للحملة الفرنسية وما أثارته من اهتمام بتاريخ مصر وآثارها وأهميتها الإستراتيجية ويعتبر النقاد أشهر كتب الرحلات الإنجليزية ما كتب عن مصر ومن

[1]- بوراريو عبد الحفيظ، مدينة قسنطينة في أدب الرحلات، رسالة ماجستير، شعبة أدب الرحلات، جامعة منتوري قسنطينة، 2007-2008.

أمثلة ذلك إلى جانب (المصريين المحدثين) اليوثين (1844) لكنجليك، ويعتبرها النقاد أشهر كتب الرحلات في الأدب الانجليزي على الإطلاق و(الهلال والصليب) لأليوت واربرتون وكتاب هاربيت مارتينو "الحياة في الشرق حاضرها وماضيها" 1846م، و"حياة القرية في صعيد مصر" (1852)لبين سانت جون، ثم "رحلة من كورنهيل إلى القاهرة الكبرى" 1846 للروائي الكبير ثاكري وفي هذه الكتابات يتجلى سحر مصر نيلها وصحرائها، قراها ومدائنها القديمة وآثارها وطباع أهلها".[1]

كما نجد رحلة كلود اثيان سافاري الذي كان منبهر بحضارة الشرق والتي استغرقت بمصر ثلاث سنوات توجت بكتابه (رسائل حول مصر Lettres sur l'Egypte) ليأتي من بعده قولناي ويقوم برحلة إلى سوريا ومصر ويكتب رحلة إلى سوريا ومصر " Voyage en Syrie et en Egypte"، وقد انحصرت الرحلة في هذه المرحلة في تسجيل الانطباعات لبعض المعالم الحضارية ووصف للمناظر الطبيعية وتصوير للعادات والتقاليد.[2]

ومن الطبيعي أن تتطور كتب الرحلات عن مصر، فبينما كان اهتمام الرحالة بوصف الأماكن والآثار والمتاحف، أصبح اهتمامهم منصبا على أهل البلاد وقد اجتذب سحر مصر السياح والتجار وعلماء الآثار ودارسي الكتاب المقدس والأدباء والفنانين، بحيث يعتبر أدب الرحلات عن مصر ثورة ضخمة من الكتابات المتنوعة في الأدب الانجليزي.